أستاذي في صحافة الحرية والضمير

كارمن أبو جودة

تعجز الكلمات امام حقيقة المشاعر والحزن العميق! وكم ندمت لأني لم أعبّر لك يا سمير بوضوح اكبر عن تقديري ومحبتي لك عندما كنت بيننا. لست شاعرة ولا أديبة كي اختار افضل المفردات وأدق العبارات التي تليق بك. كم مرة اردت ان اهاتفك (على فكرة ما عساني افعل الآن برقمك المسجل على هاتفي فأنا لا اقوى على محوه ولن افعل) لأثني على مقال من مقالاتك الأسبوعية في جريدة "النهار" ولم افعل. اعذرني. وكم مرة شاهدتك على احدى محطات التلفزة واردت ان اتصل بك واقول لك كم كنت جيدا ومصيبا وجريئا ولم افعل. اعذرني.

عرفتك منذ اكثر من اثني عشر عاما. التقيتك في صيف 1993 في مكتبك في "دار النهار" في مبنى جريدة "النهار" القديم في شارع الحمراء، لإجراء مقابلة معك حول حرية الصحافة في لبنان. كنت أعدّ تحقيقا لنشرة جمعية "صحافيون بلا حدود" الفرنسية. وقتها اكتشفت صحافيا وكاتبا مميزا وملتزما حرا لا يخاف الكلمات ولا يخشى احدا. وفي ايلول 1994، اقترح السيد كميل منسى عليك ترؤس تحرير مجلة شهرية ناطقة باللغة الفرنسية ملحقة بصحيفة "لوريان لو جور"، وكنت قد كلمتك قبل ذلك عن المشروع لأن الاستاذ منسى سبق ان عرض عليّ العمل فيه. لكنك كنت مترددا بعض الشيء، ومتوجسا من العمل في مؤسسة تختلف مع توجهاتها الفكرية والسياسية والطائفية. لكنّي شجعتك، وقلت لك ان المجلة ستكون مستقلة تماما عن الجريدة والسيد منسى يعرف جيدا من تكون (اتذكر؟ اني كنت من سلّم سيرتك العلمية والمهنية CV الى السيد منسى) قبل ان يقترح عليك المنصب. وقبلت بالفعل رئاسة تحرير المجلة وبدأ مشواري معك لتأسيسها. كنا نجتمع في مكتبك في "دار النهار"، نفتش معا عن اسم لها، ونفكر في خطها التحريري وابوابها وعناوينها واسماء الصحافيين والكتّاب الذين سيكتبون فيها وكنت ادوّن كل شيء، وكنت شاهدة لعبقريتك وحسك المهني وثقافتك الشاسعة وذكائك الحاد. لقد احتفظت يا سمير بكل تلك الاوراق والدفاتر المليئة بالأفكار والاسماء والموضوعات.

في 2 كانون الثاني عام 1995 انتقلنا نحن الاثنين الى مبنى "لوريان لوجور" في الاشرفية حيث تم تخصيص غرفة ضيقة وحيدة لنا لتأسيس المجلة. وبدأت المشاكل والعراقيل المادية والمعنوية. وكنت بطبعك الناري تثور وتغضب وتطالب بحد ادنى من الوسائل التقنية، وبمكتب اوسع وفريق عمل من الصحافيين (اروي هذه التفاصيل لأنك عانيت وقتها الكثير واعرف انك تريدني الآن ان افصح عن ذلك).

كبر المشروع وتوضحت خطوطه ومعالمه وسياساته وولـدت "لـوريـان اكسبـرس" وصدر اول عدد منها في 24 تشرين الثاني 1995، مجلة عربية ناطقة بالفرنسية، مختلفة ومتميزة عن كل ما عرف في الصحافة اللبنانية والعربية من قبل، مجلة تقدمية وملتزمة حقوق الانسان. مجلة ذات نوعية وجودة عالية، أنيقة وعصرية، لكن اهم من كل هذا كانت مستقلة وحرة. وكان العمل معك يا سمير شيقا وشاقا. كان هناك من جهة متعة العمل الصحافي في جو من الحرية مع تحكيم الضمير والأخلاقيات المهنية والدفاع عن الضعيف والمغبون، واهم شيء كان غياب الرقابة الذاتية التي كانت ممارسة روتينية وعادية في الصحافة اللبنانية وقتها (وهي اسوأ انواع الرقابة كما تعلم). وكنت تطمح من جهة اخرى الى نوعية عالية واسلوب رفيع ومتقن في الكتابة وهذا ما لم يكن في متناول الجميع. وكم كنا

نعاني بداية لنكون على مستوى طموحاتك فينا، فكان العمل معك تحديا وغنى.

تبلور حلمك في المجلة وقمنا بتناول موضوعات محظورة او محرمة. وتطرقنا الى مسائل حساسة وكتبنا النقد في كل الميادين (في الفن والثقافة والاعلام والاعلان) وفي وقت كان هذا الاسلوب او الفن الصحافي - الذي برعت فيه يا سمير - شبه مغيب. كانت أحلامك وطموحاتك تكبر ومعها تكبر المشاكل والعراقيل من كل حدب وصوب. الضغوط السياسية والمالية و"الاعلانية" تتزايد وانت تقاومها. ونحن معك قلة من الصحافيين والكتّاب متراصين متعاضدين في السراء والضراء. حتى تبين ان مخاوفك يا سمير كانت في محلها حين عرض عليك مشروع المجلة. وكان كلما صدر عدد جديد من المجلة نقول هذا الاخير. في تلك الظروف كان العمل صعبا... حتى جاء يوم علق فيه حلمك يا سمير. وكان العدد 27، الذي صدر في شباط 1998، العدد الاخير من "لوريان اكسبرس" وكان موضوع الغلاف يدور حول الحركة الطالبية التي كانت تتبلور في ظل التظاهرات التي نظمها الطلاب وقتها في الجامعات والتي تحمست لها كثيرا (كان حدسك في مكانه أليس كذلك؟).

لكننا لم نعرف ان هذا العدد سوف يكون الاخير الا غداة توزيعه في الاسواق، وكان ذلك مقصودا. فلم يعلنوا عن توقف اصدار المجلة الا بعد طبع العدد. وكان ذلك خوفا من ان يكون ذلك العدد الأخير "انتقاميا" يقول الاشياء بأسمائها ويضع النقاط على الحروف و"يحاكم" الذين وضعوا حدا للمجلة، وانتزعوها منك. نعم، اختلسوها منك يا سمير. نحن الذين عملنا معك نعرف، ونعرف كم كانت الخيبة كبيرة وعميقة، ونعرف انك لم تسامحهم. ونعرف انك كنت تحلم باعادة اصدارها، وحتى لو تم ذلك تحت اسم آخر، فهي ملكك مهما قالوا، وستبقى لك مهما فعلوا. وكنت منذ فترة تفكر في صيغة وتفتش عن تمويل لاعادة اصدار المجلة لمناسبة مرور عشرة اعوام على اصدارها عام 1995.

سنحقق لك نحن يا سمير هذه الامنية. وسنفعل كل ما في وسعنا لتكون على مستوى طموحاتك واحلامك. بدأنا نجتمع وبدأ المشروع يتبلور في رؤوسنا. اكتب ذلك لنضع انفسنا امام التحدي ولنضع الجميع امام المسؤولية. بدءا من اصدقائك الصحافيين والكتّاب الذين سيساهمون في المجلة وصولا الى اهلك وزوجتك وابنتيك الذين نطلب موافقتهم وبركتهم. ستكون يا سمير حاضرا معنا، ومع كل واحد منا. وستكون رئيس تحرير المجلة وستتذكر كل ما كنت تقوله وما لم تكن تقوله، لأنك لم تكن كثير الكلام.

اكتب هذه السطور وانا ارتجف، قلبي يدق بسرعة، وفي حنجرتي غصة ودموعي تتساقط رغما عني. رحيلك لا يحتمل. كتبوا الكثير عنك. هل قرأت ما كتب عنك وهل سمعت ما قيل فيك؟ هل كنت تعرف كم كنت رجلا عظيما، وكم كنا نحبك؟

آخر مرة رأيتك فيها، كانت في التظاهرة التي نظمت بعد اسبوع على اغتيال رفيق الحريري. وكنت قد اتصلت بك على الهاتف وسألتك اذا كنت ستطيع الانضمام اليك في ساحة الحرية وقلت لي: "لاقيني في خيمة "اليسار الديموقراطي" الموجودة على يسار نصب الشهداء"، وهكذا كان. رأيتك وقبلتني وكانت السيجارة في يدك وكان الشباب من حولك والاعلام ترفرف والاجواء رائعة. وحين بدأت المسيرة من ساحة الحرية الى مسرح الجريمة رأيتك تركض وتصرخ و"تشوبر" بيديك مشرفا على حسن سير المسيرة. فكان هذا هو المشهد الاخير في ذاكرتي، وسأحتفظ به دوما، وسأنسى وامحو من رأسي المشهد الذي تناقلته التلفزيونات والصحف والذي لا يشبهك. انت يا سمير وإن مت شهيدا، وانت الشهيد الحقيقي، فان الصورة التي ستبقى في ذهني الى الابد هي صورتك في ساحة الحرية، صورة رجل حر ومتحرر، صورة الرجل الجريء والشجاع، الجذاب والساخر.

المرة الاخيرة التي عملنا فيها معا كانت خلال الاعداد لبرنامج "بدون تحفظ" في "تلفزيون لبنان" والذي تم وقفه لأسباب اصبحت معروفة. اذكر انك قلت بعدها، وبعدما اوقفوا ايضا اصدار النسخة العربية لجريدة "لوموند ديبلوماتيك" التي ترأست تحريرها: "كيف يمكن ان اعمل بعد اليوم ومن سيسلمني مشروعا آخر، فأنا في نظرهم رجل فاشل، فشلت في كل المشاريع التي توليتها في السنوات الأخيرة؟". انت يا سمير لم تفشل، هم الفاشلون. وانت لم تخسر، هم الخاسرون. فأنت الناجح، وانت الحر وأنت الجريء وانت صاحب المشروع والحلم الذي سيبقى لنا وللشباب وللأجيال الآتية.

كنت رئيس تحرير(نا) خلال اقل من ثلاثة اعوام، اعوام غزيرة وغنية تدربنا فيها على الصحافة الحرة والضمير المهني وتبلورت لدينا افكار وقضايا اصبحت هاجسنا كما كانت هاجسك.

ثلاثة اعوام ثقفتنا فيها ووسمتنا كما الوسم بالحديد الاحمر الحارق. وسنبقى اوفياء لك ولذكراك. فمنذ معرفتي بك لا اذكر اني اهديتك يوما هدية في اي مناسبة، كما كان يحلو لبعض الصديقات ان يفعلن، لمناسبة عيد ميلادك مثلا او بدون مناسبة لأنهن كن يحببن تدليلك وكنت تحب ذلك. من هذه اللحظة سأهديك كل مقال وتحقيق صحافي اكتبه. وسأحاول ان اكون، قدر المستطاع، عند حسن ظنك، وستبقى رئيس تحرير(ي) على الدوام والى الأبد ■